في الأخلاق

أدب النفس

للدكتور يحيى الخمار الرديني

أدبني ربي فأحسن تأديبي (حديث)

الأدب : هو القواعد التي يلتزمها الناس في معاملتهم مع الله تعالى كما يلتزمها بعضهم مع بعض ، فمن خالف ما افترضه الله تعالى عليه فقد عصى ، ومن شذ في معاملة الناس عن المألوف المتعارف فقد ضل ، ومن حاد عن طريق ربه فعقابه الشقاء والحرمان ، ومن ركب هواه مع الخلق فقد شقي وكان نصيبه الخسران .

طغى سيل العلم في هذا العصر على الأدب . فترى المتعلمين وقد حشوا أدمغتهم بالنظريات العلمية بينما تجدُ نفوسهم خالية من مكارم الأخلاق ومبادئ الآداب البسيطة ، فهم يتعلمون ولكن لا يعرفون طريق الحق فيتبعوه ويتلمسوا مسالك الفضيلة فيلجوها . كلا ، وإنما العلم اليوم وسيلة الارتزاق وأداة لجمع المال والاستمتاع بالشهوات ... يتساوى في ذلك علماء الشرع . وعلماء الوضع وطلبة المعاهد الدينية وطلبة المدارس من ابتدائية وثانوية وعالية . إلا من عصم ربك القليل النادر .

أصبحت الدنيا غرضهم يتناحرون عليها . وبها لكون فيها ، عبدوها فوكلهم الله إليها ، فأذلهم بريقها الخلاب . وطاشت فيها أحلامهم . وعميت بصائرهم وضاقت الدنيا بهم . فهم بين مكروب ومغموم . لا على واجب الله الذي ضيعوه ، ولا على آداب رسوله صلوات الله عليه التي خالفوها ، ولا على ما يجب عمله في خدمة الدين ورفعته . وإصلاح الوطن ونجدته ، ولا على نفوس غمرتها الشهوات فأضعفتها وتجافت عنها الفضيلة فخربتها عزها ونورها ، وأصبحت ذليلة مهينة . إن أعجبتك مظاهرها الفتانة . فيحزنك كل الحزن بواطنها القمئة الحزينة . كل ذلك لا يحزن القوم ولا يهمهم ، وإنما غرضهم ! المرتب والوظيفة والدرجة ، يحزنون لرزق مقسوم قدره بارىء النسمات حينما قدر الخلق فأحسن تقديره ، وقسم الرزق وأحكم تدبيره . فهم يتهمون ربهم . ونسوا وصية رسوله الكريم صلوات الله عليه : (لا تتشاغل عما فرض عليك بما ضمن

لك . إنه ليس بفائتك ماقسم لك . ولست بلاحق ماذوى عنك) .

اتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله . لايتعاونوا على معروف . ولا ينتاهوا عن منكر ؛ وإنما ليصلوا إلى الرزق من أقصر الطرق وأقربها . الدنيا غايتهم والطمع قائدهم . وقد قال الإمام على رضى الله عنه : من أصبح على الدنيا حزينا فقد أصبح لقضاء الله ساخطا ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فقد أصبح يشكو ربه ؛ ومن أتى غنيا فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه ؛ ومن قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا » .

خلق الله تعالى هذه الحياة ووضع لها نظما من اتبعها أصاب . ومن حاد عنها خاب . والنفس الإنسانية خاضعة لهذه السنن . وهى تماس وتربى كما يماس الصغير . فإذا ماعودتها شيئا تعودت وإذا ما جنبتها أمرا اجتنبت ؛ وإذا كان يجب أن نعنى بالعلم وتحصيله كثيرا فيجب أن تكون عنايتنا بأدب النفس أكثر ، إذ تتوقف على تربية النفس سعادة الإنسان بل سعادة المجموع . إذا ماصلحت النفوس وتهذبت الطباع . قال جورج هربرت أحد فلاسفة الإنجليز : قليل من الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة . ولا يؤخذ من ذلك أن العلم يجب احتقاره كلا ، بل يؤخذ منه أن العلم يجب اقترانه بالخير . فرب عالم أقل من جاهل أمانة وفضيلة وإخلاصا وإدراكا لروح الواجب .

وقال أحد الفلاسفة : لا يعول فى هذه الحياة على الذكاء بقدر ما يعول على الأخلاق ولا يركن إلى العقل بقدر ما يركن إلى القلب ؛ ولا يوثق بالعبقرية بقدر ما يوثق بضبط النفس والصبر والتهذيب ، يصحبها جميعا إصالة الرأى . ولذلك كان أنفع شىء فى حياة الفرد أو حياة الأمة حسن النظر تصحبه الاستقامة . فحسن النظر إذا امتزج بالخبرة وحب الخير كان الحكمة العملية . لأن حب الخير ضرب من الحكمة إذ هو اجتماع المادى والروحانى . وقد قيل : ما أضعف الإنسان إذا لم يستطع أن يرفع من قيمة نفسه !

يجب أن لا يغفل الإنسان عن محاسبة نفسه وأخذها بالأصلح من الأخلاق والعمل الطيب . وتأديب النفس يأتى عن طرق كثيرة ومنها إلزامها ما افترض الله تعالى عليها . وقد جمع القرآن الكريم والسنة المطهرة هذه القواعد فى أجل لفظ وأحسن بيان : وتربية ملكة التفكير عنده بأن يحاسب نفسه على علمه وعمله وأين هو مما يعرف : فمن حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ؛ ومن خاف أمن ؛ ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ؛ ومن فهم علم .

وقد قيل : خير الآداب ما حصل لك ثمره ؛ وظهر عليك أثره ؛ ومن تعزز بالله لم يذله سلطان ، ومن توكل عليه لم يضره شيطان .

أساس أدب النفس صحة المعتقد ، وقوة اليقين فيما يجب ، وصلابة العزيمة فى التزام ماعرف ، ولا أدب لمن فسدت عقيدته وضعف يقينه فهو يسير فى الجماعات كما تسير الريشة فى مهب الريح لا تدرى مصيرها ، ولا يقوم أساس بنيان أدب النفس إلا على التوحيد الخالص لله تعالى . هذا هو أساس الفضائل وبدونه تصبح مظاهر لا حقائق . ووسائل عارية لا وسائل أصيلة . تتكيف حسب الغايات والأهواء لا حسب ما يجب أن يقتضيه الحق ويتطلبه الواجب . ومن أشرك بالله . فقد أصبحت فضائله دخلا ومحامده زغلا .

أول إصلاح للنفس هو إلزامها أمر ربها وأداء ما افترضه الله تعالى عليها ، وإن من هدم دينه كان لجسده أهدم ، ومن ضيع حق الله وهو المحسن الذى لا ينقطع إحسانه كان لحقوق نفسه وحقوق الناس أضيع . وقال رسول الله صلى الله عليه : « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة فى الدنيا ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها ، ومن حاول أمرا بمعصية الله كان أبعد له مما رجا وأقرب مما اتقى . ومن طلب محامد الناس بمعاصى الله عاد حامدهم منه ذاما ، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم ، ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم ، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه » .

هذه القواعد التى ذكرت تعززها المشاهدات اليومية وتؤيدها الحوادث التاريخية ، فهل حدث التاريخ بأن أمة اتبعت هواها وانغمست فى شهواتها سادت وعزت ؟ أترى اليوم إنسانا خلا قلبه من الإيمان واتخذ من بنى جنسه أربابا تقوى سلطانه ودام ملكه وبقى له شرفه وعزه ؟؟؟ .

نفسك مرآتك ينطبع فيها كل حركاتك وسكناتك وهواجسك وتتأثر بكل أفكارك بظاهرها وما بطن ، فانظر ما أنت فاعل بها ، فأنت الذى تجنى ما بذرت وتحصد ما زرعت وتنعم أو تشقى بما عملت .

اعرف نفسك بالقصور وإنها ضعيفة وهى فى حاجة دائمة إلى معونة ربها . ألم يخلق الإنسان من علقة مذرة وينتهى الى جيفة قذرة ؟! وهو لا يستطيع رزق نفسه ! ! ولا دفع حتفه ! فمن كان هذا حاله فهو محتاج إلى المعين الذى يرشده ويحميه ويسدده ولن يكون هذا المعين غير الله تعالى فليكن الله تعالى قبلتك وغايتك ، وهو الذى تحويه نفسك بالتبجيل والتعظيم .

لن يكون إيمان دون عمل كما ورد فى الحديث (ليس الإيمان بالتمنى وإنما هو ماوقر فى الصدر وصدقه العمل . وإن قوما ألهتهم أمانى المغفرة وخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) .

والإيمان بالله تعالى هو بضع وسبعون شعبة كما ورد فى الأثر ، أدناها إماطة الأذى عن

الطريق وأعلاها . لا إله إلا الله . وما بينهما على قسمين من عمل وترك أي مأمور بها ومنهي عنه وقد قال تعالى :« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : (ما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم) وهذا من رحمته بأمته . وإذا أردت أن تكون عبدا مؤمنا حقا فتخلق بأخلاق الله عز وجل

لكل مسافر دليل ومرشد : وأنت أيها المسافر في هذه الحياة إلى حياة أخرى وإلى عالم آخر أين دليلك ومرشدك ؟؟ ولكل ساكن مستأجر عقد وشروط ، وأنت أيها الإنسان المستأجر هذه الدنيا أين عقدك وشروطك مع مالكها ؟؟ دليلك أيها الراحل ، وعقدك أيها الضيف هو القرآن الكريم ، فإذا وفيت لله بما عليك مما حواه كتابه إليك ودعاك رسوله إليه ، هداك إلى الصراط المستقيم وأسبغ عليك فضله العميم . قال تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » وإن لم توف ما عليك فالشقاء حليفك ، والهم والحزن أليفك ، والعذاب لاشك ملاقيك . فاختر أو ذر « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » ؟

الحياة

قد كنت أشكو من أقل عذاب ... ويئن قلبي عند كل مصاب

واليوم أيسم للخطوب إذا أتت ... ويلذ لي طرق الشدائد بابي

إني تغايت الحياة ؛ وربما ... كسب الحياة وأهلها المتغابي

(بني خالد) عبد الواحد غنيم

محمد حجاج وحسن ابراهيم العقاد

بالسكة الجديدة بمصر

القاهرة في أول أبريل سنة ١٩٣٥

حضرة المحترم . . . .

بعد التحية : الآن قد حان فصل الصيف فعملنا على رغبة حضراتكم واستحضرنا بضائعه التي لا شك ستكون وفق رغباتكم وفي متناول أيديكم من أصواف وحرائر وأتيال وفقنا الله لخدمتكم والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمد حجاج وحسن العقاد